

الحب فى المنفى(*)

.وفن صناعة الآخر.



د/ وفاء إبراهيم(*)

مقدمة :

هى رواية للأستاذ الأديب بهاء طاهر، حصلت على جائزة أفضل رواية عام ١٩٩٥، قرأتها مرات عديدة ، وكلما هم القلم ليكتب ، فإن ثمة شيئاً غامضاً يتردد فى أعماقى ... لم يحن الوقت بعد ... وتتوافد على اهتمامات أخرى وتستهلكنى مسئوليات الحياة، حتى قامت ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ وشهدنا ، وعانينا جميعاً مما حدث إلى أن قامت ثورة ٣٠ يونيو ٢٠١٣ ، وفى غمرة تلاحق إيقاع الأحداث وما يتبعها من انكشاف ما احتجب، وجدت نفسى أتحرك إلى المكتبة لألتقط رواية "الحب فى المنفى" وأعيد قراءتها ، وعند وصولى إلى منتصف الرواية ، أدركت أن الوقت قد حان ، وإن ما كان مبهما تجلى، واتسع مسرح الرؤية وتعدى مكان وزمان الرواية ليتصل بالآن.

فإن زمن الرواية الفعلى يقع فى السبعينات الذى هو نتاج الخمسينات والستينات، أما مكان الأحداث فهو ما بين القاهرة ومدينة لم يسمها البطل

(*) أستاذ الفلسفة وعلم الجمال - قسم الفلسفة - كلية البنات - جامعة عين شمس

(*) اعتمد التحليل فى هذه الدراسة على : "رواية الحب فى المنفى" ، بهاء طاهر - دار الهلال - أبريل ٢٠٠١ الحائزة على جائزة أفضل رواية ١٩٩٥ .

(على الأرجح أنها باريس) ، وأسبانيا ولبنان، غير أن زمن ومكان أحداث الرواية ستفتتح أمام القارئ ليتصلان بمسرح الأحداث التي نعيشها الآن جميعاً، وكأن رواية "الحب فى المنفى" prelud لرؤية ثاقبة ينزع فيها الأديب حجاب المستقبل القريب فى صورة شديدة الانكشاف يقول على لسان البطل فى نهاية الرواية : ها هو الأمر إذن، لا شئ غير نباح الكلاب، لن تصفى حسابك مع الأمير، لن تصفى الحساب مع الكلاب ، لن تصفيه مع الحجاب، نعم يا صديقى أفهم أن يردئى الحجاب ولكن ماذا عن الكلاب ؟ ... أهبط ... لا أستطيع أن أصعد ... أنسى الخريطة ... وأنسى السيارة واتبع فقط كل الطرق التى تهبط فى اتجاه النهر ... (ص ٢٥٣) .

وقد يتبين للقارئ لماذا كان توالى أحداث مسرح الثورات العربية تليها الانقسامات، والصراعات فيما بينها، وفيما بينها وبين الشعوب التى حدثت فيها ، فإن هذا هو المفتاح الذى أظن يقدمه الروائى، به تلج عالم هذه الرواية المضنية فى قراءتها، والممتعة حين تتفك شفرات رموزها وتتجلى، فهى تعد إضافة أدبية إلى المفهوم الفلسفى الوجودى "صراع الأنا والآخر" حيث برع الأديب على جعله أكثر فاعلية فى إثراء حياتنا من حيث شموله الوجود الإنسانى فى كل زمان ومكان وهو بهذه الإضافة يقدم صمام أمان لذلك النظام العولمى ونظرته الاستغلالية للبشر حيث يطلعه على ضرورة الإيمان بالتنوع والاختلاف "ولاسيما الثقافى" فى إطار يسمح بالتكامل وبالتفاعل، وإلا أصبحت العولمة مجرد اقتراب للمخالب والأنياب من الأبدان والأحشاء، من أجل الحصول على موارد وثروات البشر.

ففى الرواية نجد المفاهيم الوجودية التى أبدعتها الفلسفة الوجودية بعد الحرب العالمية الثانية مثل : "تحطم الوعى على صخرة الواقع" ، "الآخر

يوصفه جحيما" ، "إرادة عدم الإرادة"، "سبق الوجود على الماهية" وحرية "اختيار الذات وصنعها لنفسها من خلال المواقف" غير أن الأستاذ الأديب يركز على مفهوم "الآخر" ويرى أنه أساس حركة الوجود الإنسانى كله ونجح فى إظهار وجوهه المختلفة — من خلال شخصيات الرواية — حيث يبدأ من تحول فى "الذات" بحيث تتكرر فيه لذاتها وتصبح آخر لنفسها ، ومن ثم لغيرها وعلى طول الرواية يتوسع الأديب بالمفهوم إلى أن يصل إلى "فن صناعة الآخر"، بحيث يجعله قانونا فاعلا فى النفس وفى الاجتماع والسياسة والتاريخ وفى الفكر وفى الطبيعة، وهو بذلك يضيف عليه "طابعا" أنطولوجيا / وجوديا عاما .

وبهذا الشرط الذى — يقدمه الأديب — فلن تكون الذات جحيما للآخر إلا بعد أن تكون آخراً لذاتها أولا ، يفتح به تقبا للأمل فى جدار اليأس الإنسانى، فالإنسان لا يكون جحيما لغيره إلا إذا كان آخر لنفسه أولا ، وبذلك فهو يحاول أن يقلل من أسباب الصراع والنزاع بين البشر ، غير أن أحداً قد يتساءل : هل عندما تصبح كل ذات هى ذاتها تضمن بذلك ألا تكون جحيما مدمراً للذات الأخرى، أليس التفرد والتميز بين البشر — وأيضاً بين الأوطان — مدخلا للنزاع والصراع ؟

هنا يؤكد الأستاذ الأديب من خلال شخصيات الرواية وأحداثها على أنه إذا ظلت كل ذات ذاتها فإن ذلك يضمن بقاء "العنصر المشترك" الذى يجمعها ، وهو "الإنسانية" بوصفها السياج الذى يجنب الإنسان من أن يصبح وحشا تائهاً فى غابة بلا قانون "برجيت / شادية" مثالا لذلك كما سنرى فيما بعد

ملخص الرواية : هي قصة مراسل صحفى أبعدته صحيفته على خلفية ظروف سياسية إلى بلد أوروبى ليراسلها منه ، فضلا عن معاناته الشخصية الخاصة حيث انفصل عن زوجته وولديه وترك وطنه، وهو محطم النفس، تعرف على فتاة نمساوية كانت تترجم عن الأسبانية فى مؤتمر لحقوق الإنسان تنظمه "جمعية الأطباء" التى رأسها مولر "عشيق أم المترجمة" لأحد المضطهدين سياسيا فى أسبانيا وهو "بيدرو ايبانز" الذى يظهر فى بداية الرواية وفى نهايتها ، ولا تأخذ هذه الشخصية مساحة كبيرة ، ولذلك قد يراها القارئ غير المحترف إنها شخصية عرضية قشرية، ولكن هى — فى الواقع — تلعب دوراً محوريا كاشفا لعدد من الشخصيات ، كما إنها والبطل يعمقان "فكرة المنفى" ، أو نفى الذات لذاتها أو الهروب من الوعى، وقد أعجب البطل بالمترجمة فور رؤيتها ، ومع الأحداث انتهى الإعجاب إلى حب جارف تأسس على قدرة بريجيت فى أن تعيد له وعية النقى ... ومع تطور الأحداث ظهر "أمير عربى" لا يحدد الكاتب بلده "وأرجح أنه قطر" ، حاول استقطاب الصحفى بطل الرواية — المنكسر ليعيده إلى الأضواء من خلال مشروع صحفية وطنية تقدمية ، وذلك من خلال "يوسف" المصرى المتزوج من امرأة تكبره ويعمل معها فى المقهى الذى تملكه ، ويطمح فى تحقيق حلم حياته أن يكون صحفيا ذائع الصيت، ولكنه تحول إلى "آخر" لنفسه ولغيره ولوطنه، بعد فترة من لقاء الأمير حصل الصحفى بطل الرواية على معلومات من مصادره تفيد أن "الأمير العربى الناصرى الهوى" تربطه مصالح تجارية هامة مع "اسحاق دافيديان" اليهودى المتعصب لإسرائيل ، والذى كافأ جيش الدفاع الإسرائيلى على عدوانه على العرب فى حرب يونيو عام ١٩٦٧ ، ولم يكف عن إرسال الهبات والمكافآت للدولة العبرية، ابتعد الصحفى عن الأمير وأسرها له الأمير فى نفسه، وأصر على أن ينفى الحب الذى نشأ بين

الصحفى و"بريجيت" وذلك بأن يوقف نبض وجوده الذى بدأ يملأ الحياة سعادة وحيوية ، فأنهى عقد "بريجيت" لدى الجهة التى كانت تعمل بها وجعل وجودها غير قانونى فألزمها ذلك بالرحيل عن البلد ... كما أنهى أيضا عمل الصحفى / بطل الرواية حيث استدعته صحيفته للعودة إلى القاهرة، وتوازى مع ذلك أحداث الحرب فى لبنان وبشاعة ما حدث من قتل وذبح للفلسطينيين طبقا لشهادتى الممرضة النرويجية والصحفى اليهودى الأمريكى "رالف" ابن اليهودى الذى أحرق فى أوشفيتز عن صبرا وشاتيلا، ومن خلالها ظهر الوجه الاستعمارى للغرب بعد الحرب العالمية الثانية فى أتم بشاعته وروعته التى تصل حد الاستهانة بإنسانية الإنسان، ترى ما مصير العالم أو الكوكب الأرضى وهو فى قبضة هذه القوى ؟ !

لعل أصدقاء ما عاناه وطن البطل ، وما انتهى هو إليه فى حياته الخاصة، وما يعيشه فى منفاه من أحداث جعله يستشعر على نحو غامض المصير الذى يتم تقديره من قبل راسمى الخرائط وإعادة التشكيل للعالم من خلال منظور المصلحة الاقتصادية، فقد أضيف على ما اختزنه البطل فى كهف نفسه الممتلئ بالالتباسات كلمات "برنار" الصحفى الحر حين قال له : "إن صحت مصادرى فهناك طبخة كبيرة يعدونها الآن لمنطقتكم وما يجرى فى لبنان هو مجرد بداية ، هناك إعادة ترتيب كاملة للأوراق ومفاوضات سرية بين كل الأطراف ، مفاوضات بين دول وبين أجهزة وبين منظمات وسموه ضلع رئيسى فيها" (ص ٢٠٥).

كانت حركة الأحداث تسير فى خطوط متوازية أحيانا متقاطعة فى أحيان أخرى، إلا أنها انصهرت جميعا داخل بوتقة المنفى ، نفى الحب عن الوجود ، فأين إذن يعيش الحب ؟ ! قبل أن نحدد مكان الوجود الجديد

للحب، فقد قرر البطل أن يفعل شئ. أصر على أن يذهب إلى "قصر الأمير" ليصفى معه حساب "نفى الحب عن الوجود" وغرس النزاع والكراهية ليصبح الوجود لا وجود أو عدم، إلا أن الأمير رفض لقاءه وتركه مهانا أمام بوابة قصره الحديدية الموصدة، وأطلق كلابه الشرسة تتبحر من وراءها، شعر أنه أخطأ عندما منع "بريجيت" وهي تحاول أن تدوس بقوة على بنزين السيارة وهو في طريقه لتوصيلها إلى المطار عائدة إلى وطنها، حتى تنحرف السيارة وتتقلب ويموتا معا، بعيدا عن الغدر والخيانة والمهانة وإراقة الدماء ولكن البطل أوقف فعلها وأوصلها إلى المطار وودعته، ومشى وسط نباح الكلاب على غير هدى، وبدأت بوادر أزمة قلبية تحمله على التمدد فوق مقعد في حديقة عامة، وفي وسط أنفاس لاهثة ورؤية مهتزة، يسمع صوتا مرتعش من شدة البرد يسأله هل تريد حشيش مغربى أو أفغانى ؟ أسرع الشرطة قريبة عرف الصوت، ثم تأمل بصعوبة الوجه ليتأكد وبصوت ضعيف قال : بيدرو ... اختفى قبل أن يسأله لماذا ؟ ! ... وأسلم نفسه بصحبة الناي بنغمته الشجية الطويلة إلى السلام والسكينة .

قدمت تلخيصا لمن لم يقرأ الرواية حتى يستطيع أن يتواصل مع ما سأقدمه من قراءة نقدية / جمالية فالرواية تحتشد بأحداث وشخصيات قد تضيق مساحة دور بعضها إلا أنها تعمق معنى أو قد يتسع مساحة دور البعض الآخر من الشخصيات فتكشف دلالة ومغزى إلا إنها جميعا تصب في الفكرة الرئيسية "صراع الأنا / والآخر" وكيفية صناعة الآخر، لتدمير معنى الإنسانية في البشر، وحتى تتضح كيفية علاقة الأنا بالآخر، وفن صناعة الآخر، كآلية لذلك التدمير، سألجا إلى بيان صور الوعي بين الجوهر والهوية لشخصيات الرواية من خلال الحركة الجدلية بين الأنا والآخر، التي تظهرنا بدورها على كيفية "صناعة الآخر" الذى لا يرفع التناقض بل يكرسه

ويدفع بكل القوة إلى تخلى الشخصيات عن ذواتهم ومن ثم تتوقف صيرورة تشكل هويتهم فى حركة الوجود الإنسانى لىبقى صوت نباح الكلاب، ومخالب وأنياب تنهش عقل وقلب كل إنسان لديه الإرادة والرغبة فى أن يشكل عالم إنسانى بلا صراع، ومن ثم يخلط ما بين المثال كإضافة للوجود وبين القيمة كحلم لتجميل الوجود ، فلا مندوحة أن يصبح الحب فى المنفى، ويفقد الإنسان طاقة الإبداع المستمر لنفى العرضى والعشوائى والسلبى.

ولعل هذا هو سر النهاية الغامضة للبطل ، فإن الكلمات الأخيرة للرواية لا تشير إلى أنه مات فعلا ، بل على العكس قد توحى إنه عانى حالة دوار ثم غيبوبة ولكنه لم يمت وبالتالى ترك النهاية أفق مفتوح لإمكانيات التخيل للقارئ ومشاركته فى مغزى ودلالة جدل الموت والحياة، ونسبية المعنى لكلاهما يقول "فتجنشتين" : أننا لا نستطيع أن نمارس أو نجرب موتنا، كما أننا لا نستطيع أن نمارس أو نجرب نهاية مجال بصرنا^(١) .

البطل / منار

فى لقطات سريعة على طريقة "الFLASH باك" ، يرصد البطل محطات رئيسية فى رحلة حياته، فقد بدأ تلميذا فقيرا جائعا محروما، يقطع الكيلومترات الطوال فى الذهاب والعودة إلى المدرسة ومنها بحذاء بال كبير وتعلم وتخرج وعمل استقبل ثورة يوليو ومبادئها بفرحة تفجرت من أعماقه ... فكان "ثوريا" ثم أصبح من المستفيدين من الثورة ... عرف أوروبا وعرف العملات الصعبة وتاجر بها،

(١) جيمس ب. كارلس : الموت والوجود - ترجمة بدر الديب - المشروع القومى للترجمة ١٩٩٨ - ص ٢ .

فركب المرسيدس وأصبح من سكان جاردن سيتى يرتدى فاخر الثياب، والمفارقة وهو يسلك هذا السلوك البروجوازي كان يتحدث عن "الاشتراكية" ويدعو إليها ... هكذا نشأت بذرة التناقض فى ذاته، واقع برجوازي وتشدق بالشعارات الاشتراكية، وبالتالي ثورى انفصل عن جماهيره، يعيش حياة أرستقراطية بأدوات فكرية اشتراكية يتعالى بها على البروليتاريا ... فأصبح "آخرًا"، كما أصبحت منار "زوجته" هى أيضا "آخرًا" لذاتها وله ... وفى لحظة محاكمة صادقة له ولها تساءل : أين هو العطب الذى ينهشنا ويسبب الدمار ؟ استدعت له الذاكرة بداية "تسلل الآخر" فيهما حين تذكر صحراء الصمت التى عاشها مع منار شهور طويلة قبل الطلاق، تجنبنا فيها أن نلتقى عيونهما كأنهما محاربين استسلما للعدو، ولكن من كان العدو ؟ تراءى له المشهد من بعيد ... حين كانا مدعوين إلى عشاء ، رآها وهى تتحسس العقد الذى سئمته، قائلة : لقد اعتاد الأصدقاء على رؤيته ، أجاب : لم ينج من هذا الانفتاح أحد ؟ استبد بها الغضب حين سمعت الكلمة وواجهته صارخة : لا تعطنى دروسا فى الانفتاح، أنا لم أطلب السيارة المرسيدس، أو شقة فى جاردن سيتى ثم أتحدث عن عذاب الفلاحين وعن العدل، اسعفته الذاكرة أن ذلك كان إنذاراً بأنها تحررت من شئ ما ؟ فقد لاحظ فيما بعد ... إنها بدأت مشاريعها الخاصة ، بشراء الفضة من خان الخليلى ثم إعادة بيعها بعد أن ترتفع سعرها ، ثم أخبرته يوما إنها اشترت "ربع تاكسى" ثم شراء قطعة أرض من النقابة فى الغردقة وأخرى فى الهرم، أدرك "الآخر" الذى أصبحت منار، فهو نفسه قدم لها المبرر ، فقد اشترى واشترى ... وسأل نفسه متى بدأت كلمات الثورة والعروبة والاشتراكية والعدل مجرد كلمات للمقالات وليست للحياة ... وأمعن فى محاكمة كل من أصبح آخرًا فى هذا الزمن ؛ ماذا لو أننا بالفعل عشنا الثورة التى نتكلم عنها ؟ ... لو أننا قد عدنا لقرانا أو

لأحيائنا الفقيرة نعيش مع أهلنا دون خطب ودون شعارات ، هل كان كل شئ سيموت بالفعل ؟ (ص ٤٢) ..

ولعل هذا يجعلنى أتساءل بنفس لغة البطل، وأنا أشاهد مع الجميع ما نحن فيه الآن ؛ هل كنا أصبحنا تربية سهلة لصناعة الآخر فيها وفيها ؟ ... نعم ... نعم فى لحظة انكشاف الحقيقة من داخل كهف الذات ، على خلاف أفلاطون الذى كان يعتقد أننا نحصل على الحقيقة عند الخروج من الكهف ، يلوح البطل صورة جانبية لوجه امرأة محجبة تغطى الطرحة البيضاء شعرها، وتحيط بوجهها فى الجريدة التى تكتب فيها والتى كان يقلب فى صفحاتها وهو مشغول بالاتصال بأولاده "خالد / هنادى" وضع السماعه ودقق فى الصفحة قائلا : نعم هى صفحة المرأة يتوسطها اسم منار "طليقته" ومقاله بعنوان "بين الشريعة والتاريخ" : ماذا جرى لحقوق المرأة" ... أنه "الآخر" الذى خرج من صراع فى داخل امرأة كان كل همها الدفاع عن حقوق المرأة فى مقابل جبروت الرجل، وبين "وجه" آخر ولد أيام الانفتاح يلهث من أجل المال واقتناص فرص المال والثراء، يأتى "الآخر" المركب يطوى بين جانبيه كل ما فات وينفيه، ليدافع عن موقف الشريعة فى صيانة حقوق المرأة مستخدمة أسلوبا تبريريا لا يبين عن كل الملامح ... ثم عاد بذكرته إلى عشر سنوات مضت وتذكر صورتها القديمة بشعرها المسترسل، حوارها معه وهى تدافع عن حقها فى أن تختار العمل الذى تشاء وفى أن تلبس ما تشاء وفى أن تفعل مثلما يفعل ، وإياك أن تقول رجل وامرأة (ص ٧٤).

هذه هى الإضافة الإبداعية التى يضيفها بهاء طاهر إلى الفلسفة الوجودية ، لكى تكون "آخرا" بالنسبة لغيرك، فلا بد أن تكون "آخرا" بالنسبة لنفسك أولا وهذا يتم عندما تتنكر لحقيقة ذاتك ، وتصبح ليس أنت،

حيث تتوارى فيك الحقيقة وراء الزيف ... فلا يعيش ذاتك وإنما تعيش الآخر الذى زورت به ذاتك ، وعندما تبدأ التناقضات فيك بين الحقيقى / والمتحول، تصبح آخرًا بالنسبة لغيرك لا يرى فيك سوى الصراع والتناقض والجحيم ... وقد أجادت منار فن صناعة الآخر فى نفسها وفى غيرها، فهى تقول لبطل الرواية عندما كان زوجها : ما هذه الطريقة التى تتعامل بها مع الناس هنا ... ما هذا التهذيب المبالغ فيه (ص ٤) كما كانت تكره تلقائية والدها مع الناس حيث يتباسط مع الحلاق والبقال والبواب، ولما تمسك الرجل بذاته حتى الموت، راحت تقوم هى بما لم يستطع أن يفعله فراحت تتحدث عن أبيها على أنه كان موظفًا كبيرًا قوى الشخصية يهابه الجميع ... وتطالبنى فى بعض الأحيان أن أكون حازمًا مثل أبيها ... (ص ٧) .

هكذا أصبح كل من بطل الرواية ومنار زوجته آخرًا للآخر يدمى كل منهما بكلامه الآخر ... ولم يبق حل سوى أن يخرج أحدهما من الآخر (ص ٢٩) .

بريجيت / مولر

اعتقد بطل الرواية أن الذهاب إلى مؤتمر "لجنة الأطباء الدولية لحقوق الإنسان" ينفذه من حالة الشرود والاستدعاء لمشاهد تترى متعاقبة مع عذابات وتناقضات الأنا والآخر فيه وفى منار، غير أنه - وفى ظنى - أن هذا المؤتمر كان مسرح الإنكشاف لحركة جدل الأنا والآخر على المستوى الإنسانى، هذا هو الطبيب "مولر" رئيس اللجنة يقدم شهادة "بيدرو ابيانز" العمر ٣٩ سنة، سائق تاكسى من شيللى ، تعرض إلى اضطهاد سياسى وذلك حين ركب سيارته شخصًا وقال له : إجرى ... ولكن بعد مطاردة من قبل

الأمن، انتهت بقتل الرجل واصابة "بيدرو"، وفى المستشفى وجهت له تهمة سياسية وتعرض هو وأخوه لتعذيب وحشى أسفر عن موت أخاه، وقد قام "بيدرو" بوصف كيفية تعذيب أخوه وما تعرض هو له — على نحو مؤثر — أدى "ببريجيت" التى كانت تقوم بالترجمة من الأسبانية التى تعلمتها من زوجها الأفريقى من غينيا، أن تخرج مسرعة من المؤتمر ، تاركة القاعة فى حالة نفسية سيئة.

من هى "بريجيت ؟ هى أيضا وعى منفى من النمسا إلى هذا البلد الأوروبى الآخر، ولكن هل النفى لديها يماثل أو يتطابق مع نفى البطل الذى أحبها منذ رآها ، فقد أعجبت فى البداية بإبراهيم صديق البطل، ثم أحببت البطل حبا عميقا، ولدت وحيدة لأب يعمل بالمحاماة ، كرس حياته لنصرة الحق ، أينما كان ، ولذا سافر إلى أسبانيا حين اعتقد أن الحق مع الجمهوريين ، واشترك فى الحرب الأهلية ، وعاد مهزوما، وحاول أن ينتصر بالقانون فى ساحات العدل، لكن القوة والسطوة والنفوذ كانت تقهر الحق، كما قهرت المحامى التعس فى رزقه حين ابتعد عنه زبائنه، هذا هو الأب صادق النفس، يحب الآخر ، متعاطف مع إنسانية الإنسان فى كل مكان، أما الأم فهى مريضة بداء الصدر، وكان يعالجها مولر صديق الأب ورفيق الكفاح فى أسبانيا ، فما هو دوره فى حياتها ؟ ... فى لحظة وعى شفافة ... راحت تحكى للبطل حكايتها ... ومن خلال سردها الصادق برز دور "مولر" فقد أدركت وهى صغيرة خيانة الأم مع الطبيب "مولر" وتصف ذلك للبطل بكلمات صادقة مؤلمة ... كنت على ما أذكر فى الثامنة عندما واجهت عمى "مولر" ... فتحت له الباب حين أتى ولما قدم لى الحلوى رميتها وأخذت أضربه فى بطنه ... وأنا أصرخ ... أذهب ... أذهب ... أنا

لا أريد- أن أراك ... أنا لا أحبك ورغم هذا الاعتراف الخطير ... قالت بهدوء تعلمت من زمني أن أغفر لأمرى بل وحتى أن أفهمها ... وكان يمكن أيضا أن اغفر لمولر ... وبعد فترة قالت بصوت مرتفع إلى حد ما أسمع كل شيء يمكن غفرانه إلا أن تكذب على نفسك وتكذب على الناس عن عمد ...

حاول البطل أن يدافع عن "مولر" قائلا : ... ربما كان الآن يكفر عن أخطائه هو حتى في هذه السن يحاول أن يساعد الآخرين ... (ص ٦٤) قاطعته بشيء من الغضب لا ... إنتى أوشكت أن أغفر له ، لولا هذه اللجان والأشياء المضحكة، هذه هي "بريجيت" تغفر كل شيء إلا الكذب ، الذى يزيّف الواقع ... فقد أدرك وعى "بريجيت" عندما نضج أن الواقع حين يتم تزييفه ينفصل عن واقعك وتتحوّل إلى "آخر" بالنسبة له وينفك عنه ... كما حدث لها حين انفصل عنها الواقع نفثه عنها ، أما إذا انفصلت أنت عن الواقع نفيت ذاتك ، كما حدث للبطل حين كذب على ذاته وزيف الواقع فنفي ذاته الحقيقية من التواصل مع واقعها الحقيقي ... لذلك نلاحظ إنه لا يحكى لأحد شيئا عن داخله ، هو يظل في حالة منولوج داخلى لا يجاوزه إلى الخارج ... أوشكت أن أقوم وأجلس إلى جوارها هناك على الأرض لأحكي لها أيضا كل ما أوجعنى، دون كذب ولا كبرياء ولا تستر وراء كلمات أحافظ بها على تلك الواجهة التى تخفى وراءها الانهيار والخراب ... (ص ٦٣)

هذا هو الفرق بينها وبينه إنها وعى حريص على وحدة ذاته ، لذا لم تدع ثغرة تتسلل منها ثنائية تجعل منها "آخرا" لذاتها أو لغيرها ... ولذلك كان الديالوج أسلوبها مع الواقع فى علانية وبصوت مسموع، يتوحد فيه الظاهر والباطن وقد جعلها هذا الاتصال الحميم بـ "الحقيقة" فى كل شيء ، قادرة على الحفاظ على "حقيقة ذاتها"، وحقيقة جوهرها أى "الإنسانية" وهو ما تمثل

فى سرعة اتصالها الوجدانى والوجودى بالآخرين فى الوقت الذى كان فيه الحاضرون فى المؤتمر يتلقون أقوال "بيدرو" التى يصف بها ما وقع له ولأخوه من تعذيب على أنها مجرد وقائع تخص "بيدرو"، أحست هى فيها بوحدة الألم الواقع على الإنسانية المشتركة بين الناس، فتألم "الإنسانى" فيها لألم الإنسان فى "بيدرو" فكان الصمت عن الترجمة وكانت المغادرة للقاعة فى مؤتمر لحقوق الإنسان.

وفى المقابل نجد الطبيب "مولر" الذى خان مهنته وصديقه فتضاعف فيه التكر لذاته ، فيحدث فيها ما يشبه انشطار الذرة فى عالم الفيزياء، فتطلق منها طاقة الدمار الشامل الذى جعل منه "آخرًا" هو الجحيم المدمر لغيره، كيف ؟

لقد هرب منه "بيدرو" بعد المؤتمر حيث شعر بخداعه ، وأنه بالنسبة له مجرد بضاعة للعرض وليس إنسان ... ولكن المشكلة بالنسبة لمولر ليست بيدرو إنما المنظمة ... فقد تسوء سمعتها هنا ... وفى بلاد أخرى ... (ص ٩٣)

وتكشف "ذات" مولر الأنانية المدمرة عن وجه آخر من الانشطار فيها ، حين يقدم له إبراهيم المحلاوى مستندات لحالات عن بعض الفلسطينيين واللبنانيين الذين تخطفهم دوريات إسرائيل من جنوب لبنان بمساعدة جيش سعد حداد ... بعض هؤلاء المختطفين عذبوا فى إسرائيل وبعضهم اختفوا إلى الأبد ...

تصفح "مولر" الأوراق قائلا : نعم أنها حالات تدخل فى اختصاصنا... ألا يمكن أن تقدمها إلى منظمة العفو أفضل ؟ ... وتبدأ

مراوغة "مولر" فيقول : نحن في الحقيقة منظمة فقيرة ... تعمل بتبرعات الأعضاء ... وحتى لو دبرنا الأموال هناك مشكلة متطوعين شابا قادرين على العمل ... (ص ٤٧)

ثم نصل إلى أعلى ذروة من انشطارات ذات "مولر" وهو التدمير ... حين تعرفت "بريجيت" على "ألبرت" زميلها الإفريقي ... ثم أحبته بكل الصدق لأنها مؤمنة بعنصر الذات المشترك بين البشر، فقد انسدت لديها ثغرة العنصرية وفجوة التمييز بين البشر، أن "ألبرت" إنسان بالجواهر، وأسود بالعرض ، أما "مولر" فقد استخدمه كأداة ... ثم كسرهما ... أيامها بدأ حكاية حقوق الإنسان بعد أن تقاعد وأغلق عيادته ... وألف في بلدتنا الصغيرة جمعية لمكافحة العنصرية ضم إليها "ألبرت" وبقية الإفريقيين ... وصار ينظم مظاهرات في الميادين العامة ضد العنصريين ... يعقد ندوة باسم "من أجل عالم واحد" ... إلخ (ص ١١١)

نصحننا والدى ألبرت وأنا أن تنتظر إلى أن ينتهى "ألبرت" من الجامعة ... أما "مولر" صار يلح على أنا وألبرت لكى نتزوج ... كنا نعيش منذ مدة وكنا سعيدين، كيف ضاع ذلك كله بعد أن تزوجنا ؟ كيف ضاع الحب ؟ ... ضاع حين لم نعد هو وأنا وحدنا ... بل هو وأنا ومولر والعالم ، وخسر أبى القضية ... ومرة أخرى كسب مولر وهو يلح على ألبرت فلنلقنهم درسا ... يجب أن يفهموا أن العنصرية تحط من أدميتهم ... ماذا حدث ؟!

تجسدت العنصرية فى أبشع صورها ، حين تعدى سبعة من الشباب النمساوى المغمور على بريجيت وألبرت وهما فى قلب الغابة يتشد لها شعر لوركا كما تعودا، واختار قصيدة لوركا التى كتبها فى رثاء صديقه مصارع الثيران، وفى لحظات تحليق روحيهما فى نشوة تذوق خبرة الحزن النبيل،

تحلق الشباب المخمور حولهما ، وقاموا بما يتجاوز حدود الإنسانية من تصرفات مهينة لألبرت وبريجيت، وصلت حد قتل "أمل" تحقيق المساواة بين البشر، حيث فقدت "بريجيت" النمساوية البيضاء طفلها من "ألبرت" الإفريقى الغينى الأسود ...

ونقلت إلى المستشفى ... وبعد أيام، نظم "مولر" مظاهرة تحمل لافتات كتب عليها "القتلة" ورسم أيدى تقطر بالدماء ... اشترك فيها "ألبرت"، وعندما عاد وصفها لبريجيت أنها من أفضل المظاهرات ... وتابعها الناس صامتين، صرخت فى ألبرت : كفى قل لمولر أن يكف عن هذا العبث، قل له أن يخرس ... قل له أن يموت ... واصلت حكيها لبطل الرواية ... استمر "مولر" كلما جاء يكرر الخطب الرنانة فى أذن ألبرت ... تَغِير ألبرت، كان حريصا على ألا يتجاوز ما نصرفه معا المبلغ الذى ترسله له أسرته ، لم يقبل أن أنفق شيئا فى البيت أو أن أطلب مساعدة من أبى ... أما الآن بعد شعوره إنه لم يستطع أن يحمن ويحمى طفله، لم يعد يخجل أن يطلب نقوداً... وحين كنت أرفض بيكى ... فى يوم عدت من العمل وجدت مجموعة من أصدقائه الأفارقة يشتمونه ... قلت لهم ماذا حدث ؟ فرد أحدهم مشيرا إلى ألبرت هذا الكلب هذا الخائن يكتب إلى ماسيئاس "الديكتاتور" حدث أم لم يحدث ؟ ... أجاب ألبرت ببطء وهدوء بصوت ألبرت الحقيقى : أنا لم أخن أحدا

قال أحدهم وهو يصوب نحوى عينين غاضبتين ... هذه المرأة الأوروبية هى السبب ... جذبوه بعيدا ... غير أنى أنا وحدى كنت أعرف... كنت متأكدة إنه على حق ... (ص ١١٨)

ترى من أين يأتى يقين بريجيت؟! هل هى تعلم من هو الذى دمر ألبرت حقا؟ فقد سأل بطل الرواية نفسه — فى مرات كثيرة جمعته معها ومولر — من أين يأتى التعبير "الآخر" الذى لا أستطيع أن أحده؟ ذلك الجمود الكامل فى ملامحها وعينها، قناع يسقط على الوجه فيخفيه... أى قناع هو؟! للحزن أم للقسوة؟ حين تنتظر إلى مولر، قائلة: أن من يتعذب، يتعذب وحده... ثم راحت تدق على المائدة بأصبعها وتستطرد مخاطبة مولر: مهما كانت اللجان الطبية والمؤتمرات الصحفية يا دكتور.... واستمر استرسالها المتدفق مع بطل الرواية حين وقفت أمامه فى هدوء: مولر هو الذى دمر حياتى... (ص ٦٤)

هكذا مولر نموذج الإنسان حين يتحول إلى آخر، ثم يصبح حرفته التظاهر pretend بأنه ينفذك أو يحررك أو حتى يقاتل معك... ولكن ينتهى التظاهر بتدميرك.

بطل الرواية / إبراهيم المحلاوى

إنهما الزميلين فى جريدة واحدة، المختلفين أيديولوجيا، ثم الصديقين فى الغربة بينهما علاقة جدلية شائكة، يمكن أن تتضح من خلال مستويين:

— علاقة الجوهر بالهوية.

— الخلط بين القيمة والمستحيل.

فقد كان بطل الرواية ناصريا، وزميله إبراهيم ماركسيا، تحول الخلاف الفكرى بينهما إلى تناقض وجودى على نفس الأرض فأدى إلى الصراع الذى يفقر ما فى الفكر من إمكانات حيوية قد تنثرى الوجود، فأصبحا

كل منهما هو "الآخر" لزميله كنتيجة لكون الواحد منهما هو "آخر" لذاته ، فكما سبق أن أوضحنا كيف تتكرر بطل الرواية لذاته وعاش حياة برجوازية متعاليا على أفكار الاشتراكية الاجتماعية التى يؤمن بها أما إبراهيم فقد أصبح "آخرًا" لذاته من خلال عبارة مشؤمة كتبها لحبيبته المخلصة وزميلته "شادية" الصحفية الجميلة النشطة والنوعية بقضايا خطيرة مثل : حركة التحرير فى إفريقيا، وتطور الهجرة إلى إسرائيل، وعن معجزة الاقتصاد فى اليابان، لماذا كتبها لها ؟ وماذا فيها ؟ حين طالت سنوات الاعتقال والانتظار من ناحيتها ، كتب لها رسالة يقول فيها : إن أردت الانتظار فأنت حرة فى أن تسلى نفسك بالخروج مع من تشائين من الرجال ...

اعترف إبراهيم للبطل الذى كان لا يعرف سر انفصاله عن شادية ؛ فبعد أن التقيا فى "مؤتمر حقوق الإنسان" خارج الوطن، حيث انتهت أسباب العداوة ، وتظهر كل منهما من الأطماع الفردية المرتبطة بزمن مضى، واعترف البطل أيضا لإبراهيم إنه كان وراء فصله من لجنة الثقافة الجماهيرية بالاتحاد الاشتراكي الجديد قبل التحول إلى الأحزاب فى زمن السادات حيث ساءه وهو "الناصرى" ما كتبه إبراهيم فى نقد بيان ٣٠ مارس ١٩٦٩ ، ... عادت ذاكرة البطل إلى صورة شادية — وكانت قد فاجأتهم بالزواج من عم عبد اللطيف صراف الصحيفة ، ثم طلبت نقلها بعد عام إلى قسم الحسابات ، ثم تهرلت ... فأصبحت تلبس صيفا وشتاءً ما يشبه المعطف واسع الكمين ودون أزرار ، تربط شعرها بإيشارب ، تنقل الأخبار بين المكاتب "وهى حامل" وتضحك قائلة "تموت فى النسيمة" ... سأل إبراهيم مندهشا : كيف تقول ذلك لأمرأة ؟ أجاب لا أعرف ... ربما يتغير الإنسان فى السجن ... كانت شجاعة وأصيلة حين ظلت ممسكة بى كل هذه السنين

... لعلها لو انتظرت قليلا ... لم يكمل إبراهيم ما كان يفكر فيه ... غمغم البطل قائلا : لماذا ندمر أنفسنا بأيدينا ؟

قال إبراهيم "الماركسي" أظن أنى ضيعت عمرى أبحث عن واحدة تجمع كل المتناقضات ولم تخلق بعد ... رد بطل الرواية : أو ربما يلزمك شئ من التواضع ... هكذا عاد البطل إلى وعيه النقي بعد ما حدث فى مؤتمر بيدرو إيبانز ومغادرة بريجيت المؤتمر ... بدأ يبحث عما هو مشترك بينه وبين الآخرين ربما بعث فى داخله التعاطف والصدق ما قالته بريجيت ... ها نحن نضحك ونمزح وكأن شيئا لم يحدث ، لم يعبث أحد بأصابعه فى جروح بيدرو ، ولم يقتل أحد أخاه فريدى ... فما الداعى إذن إلى التظاهر "أو الزيف" ؟ ! هذا كله جعله يشعر بالرغبة فى البكاء الصادق على بيدرو أو على أى فريدى ، بكاء كبكائى صبياً على أم صابرة الشهيدة، وجنود البوليس الذى قتلهم الإنجليز فى الإسماعيلية كدموعى على لومومبا يوم قتلوه فى الكونغو ... على تلك الأشياء التى غابت الآن بعيدة جدا ... التى حدثت منذ قرون وقرون ... (ص ٥٢)

يبدو أن ما سبق يحرك به الكاتب فى القارئ — أدبيا — فكرة فلسفية عميقة بها يكون فى مقدورنا أن نميز بين "الجوهر" substance، "والهوية" identity ، فهما ليسا مترادفين، وإن كانا متضايفين، فالجوهر فى اشتقاقه اللغوى sub/stare، وهو ما يثبت رغم التغيرات التى تطرأ على الكائن ، أما الهوية فهى الشخصية التى تعبر عن ذلك الجوهر، ومن الممكن أن تتطور وتتغير وتتحوّل فى أسلوب إبداءها للجوهر ، فالإنسان ثابت ومتغير، فهو يتجلى فى أساليب وطرق متغيرة، فالهوية كما يصفها — نورمان هولاند — تشبه البنية العميقة للشخصية التى يعبر عنها فى كل فكرة أو فعل أو إدراك ،

فهى تصوغ التجربة وتعيد تنظيمها استجابة لما فى الواقع من تغييرات وتطورات مستمرة،^(١) وربما أن شادية قد حافظت على "جوهر ذاتها" فى هوية متغيرة، ظلت قادرة على الحب والعطاء بشرف وإخلاص ولكن لأسرتها ولزوجها ، فأتخذت البطولة والنضال والعطاء لديها أسلوبا آخر من الفكر إلى تدبير الحياة فى منزلها وعملها، استطاعت شادية أن تصهر كل تناقضات الوجود فى ضحكة مجلجلة فرحة تكسب بها ذاتها أو ساخرة من التحول إلى "آخر" ، كما كان يريد لها حبيبها الماركسى الذى تحول فى نظرها إلى آخر كرية يدعوها أن تتسلى بالفسق إلى أن يعود إلى الحرية ... لقد فهمت أنه يرى حبها مجرد شهوة غريزية وبالتالي فهمت أنه يفرغ انتظارها من مضمونه وأنه يحولها إلى آخر غير ذاتها .

ومن ثم لم تكن أبدا "جحيما لغيرها" وأكدت جوهرها "الثابت" ولكن فى أسلوب آخر، وبذلك يقدم لنا الأستاذ الأديب حل لمشكلة أفلقت فلاسفة الوجودية ، حل قرب بدوره بين بطل الرواية وصديقه اللدود "قديما" إبراهيم، حيث ألتقى كل منهما على ما يشبه هذه المعانى ، كما تقبلا كلاهما نقد كل منهما للآخر .

أما بالنسبة للمستوى الثانى "الإيدولوجى" ، فقد ظل متجمدا تتصادم فيه الآراء إلى حد العنف أثناء النقاش ... يقول مولر : لا داعى لكل هذا العنف يا سيد إبراهيم ... يرد البطل لا تهتم تعودنا على هذه الطريقة فى النقاش من زمن طويل ... فكل منهما يرى أن الآخر هو سبب فشل "حلم عبد الناصر" أن يتحقق على الأرض ... يقول إبراهيم : كيف ترتقى فى الصحيفة

(١) ولهم رأى : المعنى الأدبى من الظاهرية إلى التفكيرية - ترجمة د. يونيل يوسف عزيز - دار المأمون للترجمة والنشر - بغداد - سنة ١٩٨٧ .

أيام كان السفر للخارج أصعب من السفر للقمر ... يرد بطل الرواية : كنت أحبه ولازلت ... أراد أن يغير الحياة في بلادنا فحاربتموه أنتم وغيركم ... يرد إبراهيم غاضبا ... كيف حاربناه ؟ وأين ؟ لم تكن السبب فيما حدث ... بل ها نحن ندافع عنه ... قال بطل الرواية : بعد أن ضاعت الفرصة ... (ص ٣٢) هكذا أصبح "الزعيم الحلم" بين الزميلين ، كما كان بين البطل وزوجته، هو خلفية الشجار والمشاحنات ، وبذلك يتحول إلى مجرد لعبة بيتية قديمة يضرب بها أحدنا الآخر ... (ص ٣٨)

فعلق إبراهيم : ربما كنتمما أنت ومنار تبحثان عن حب كامل ومستحيل ... غاص البطل في داخله "كعادته" قائلا : ألا نتحدث عن نفسك بالذات يا إبراهيم ... وهل كان هذا البحث عن المستحيل هو السبب في إنك تركت شادية (ص ٢٧) ، إذن هل يتداخل الحلم الخاص بالحلم العام أو "حلم الوطن" .

لعل هذا الحوار يسمح لنا بتحليل قد يفيدنا الآن في مناقشاتنا التي — عادة — ما تتحول إلى شجار ومشاحنات ، وقد تصل إلى العداء بسبب سوء استخدام المصطلحات وسوء الفهم للغة، فعلى طول الرواية سواء من خلال المنولوج الأحادي لبطل الرواية أو الديالوج بينه وبين إبراهيم المحلاوى — كما يحدث الآن في واقعنا — نجد حالة تفجع على ما ضاع والذي يصفونه بحلم "الكمال المستحيل" الذي كان يمثل عبد الناصر، هذه الحالة نشأت من خلط بين "القيمة" و "المثال" ، فالقيمة "معياري" ، والمثال "وجودي" ، كل منهما يمثل عالم يختلف عن الآخر، فالقيمة من "عالم القيم أو الأكسيولوجيا" هي مجرد حكم على الواقع ، تجمله أو تزينه لكن لا تكمله ، أما المثال فهو من "عالم الوجود أو الأنطولوجيا" أي إنه وجودا يقبل التحقق يضيف إلى الواقع

ويَتَسع به ويمتد ... وحتى يتضح ما أرنو إليه ، سنتأمل قليلا فى حب منار لبطل الرواية ، إنه ارتبط بأيام مجده وصعوده ، وارتبط مجده وصعوده بعبد الناصر والاتحاد الاشتراكى، ووحدة العرب من الخليج إلى المحيط ، ثم خبا حلم عبد الناصر — كما أريد له — فى أعقاب هزيمته، وجاء السادات وصنع من نفسه "آخرًا" لعبد الناصر وصحبته، وتقلص بطل الرواية وظيفيا ومعنويا، وطال ذلك زوجته أيضا ... نراه يقول لنفسه ... أدرك الآن ... أدرك بصفاء كامل — أن تشبثى بحلم عبد الناصر أيامها لم يكن مجرد إيمان بالمبدأ الذى عشت مقتنعا به، بل كان أيضا تشبثا بحلمى الشخصى (ص ٢٨) هكذا البطل ومن على شاكلته .

وفى إطار ذلك يكون عبد الناصر مجرد قيمة تزين الواقع ويستمد منها قيمته ووجاهته المستفيدين، أما الحلم المستحيل فهو "مثال" أى وجود يغرى بالسعى من قبل أصحاب الإرادة الصادقة لتحقيقه ، وفى تحقيقه إثراء للواقع ، وكمال له ، وإضافة إليه، فالحزن والحسرة الذى يصل إلى حد التفجع كان ينبغى بالأحرى أن يكون على الوطن، أى على ما كان سيعمل به، وليس بما يكونه فردا ما أو مجموعة ما تحصل على تميز أو وجاهة ، على هذا النحو يستمر الخلط مع استمرار عناد الصديقين إذ لازال يرى أحدهما أن الحزب الشيوعى هم المستقبل وهم حتمية التاريخ، والآخر بطل الرواية يرى أن ناصر حلم الكمال المستحيل ، لأنه لن ينبعث من جديد، ومع ذلك فإن إيمانه كبير بأن الشعب لن ينسى ما فعله عبد الناصر من أجله ... لن ينسوا أنه هو الذى بنى الوحدة الصحية فى بلدة مات نصف سكانها من الملاريا ... لن ينسوا أنه بنى مدرستين ووزع على الفقراء الأرض (ص ٩٩)

هذا هو "المثال" الذى كان يمكن الاتساع به كالأوانى المستطرفة ليشمل الوطن ، ولكن — للأسف — ظل الزعيم فكرة عن الكمال لا يتحقق كاملا لأن المؤمنين به لم يدركوا إنها تتطور بتطور العقل ، وبذلك تتضح أبعاد المشكلة إنها ليست فى مثال لا يتحقق، بل هى فى وعى لا يدرك الطابع المرحلى للمثال كفكرة عقلية أو رؤية يمكن أن تتحقق ولكن فى تزامن مع رؤية عقلية جديدة لمثال جديد أو بمعنى أدق — للمثال من جديد ، فالمدهش أن وعى الإنسان لا يدرك ما تحقق لإنشغاله بما لم يتحقق، ولكنه لا ينتبه إلى ما يحدث من متغيرات مختلفة فى الزمان والمكان تشير إلى مرحلة جديدة تحتاج إلى دينامية جديدة ، بمعنى الوعى بالطابع المرحلى للمثال، وحين يتم هذا الإدراك تتحرك إرادة التغيير فى النفس والحياة، ولعل بذلك تتولد قوة الدفع المستمرة لكشف أوجه قصورنا، وكيفية معالجتها ، وبالتالي نتقدم بما "تحقق" وسنتقدم بما لم يتحقق .

وفى ضوء ذلك التفسير ربما يفلت المثال من دائرة المستحيل أو النفى والعدم، لأنه رؤية عقلية مرحلية تتحقق مع تولد أو تشكل رؤية جديدة فى العقل يتحول إليها المثال وهو ما نلمحه فى يقين البطل الذى كان يتلمسه فى أشياء صغيرة ... أذكره بأن الناس فى مصر بعد أن قيل عن عبد الناصر كل ما قيل خرجوا سنة ٧٧ يحملون صورته ويهتفون باسمه ... أقول له معنى هذا أن ثورته ستصحوا على أيدي الناس مرة أخرى ذات يوم ... ولقد رفعت بالفعل صور عبد الناصر فى ثورتى يناير ويونيو لاكمال تحقق المثال فى إطاره الواسع العدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية بغير خلط بين معنى القيمة والمثال.

لعل فى ضوء هذا التحليل تنتفى ازدواجية الرؤية للحياة والوجود ، حيث تنحصر مهمتنا جميعا — ولا سيما المثقفين — فى تعميق الحقيقة بدلا

من تستطيعها ، وليصبح الوجود بما هو وجود قابل للتحقق للجميع ، وليس قيمة يتزين بها البعض وينعم بالإمميزات .

بطل الرواية / الأمير حامد

تعددت أسباب "التحول إلى آخر" فى شخصيات الرواية من سبب سيكولوجى إلى سياسى إلى حضارى، واختلفت — فى نفس الوقت — "الآخر" ما بين آخر أدرك المشكلة ويسعى إلى العودة لوعيه النقى (البطل / إبراهيم)، وآخر أصبح مسخاً مشوهاً مثل (بيدرو / يوسف)، وآخر ظل هو الذى يصنع الآخر وتفتح شهيته إلى التدمير بقدر ما فى داخله من طاقة تخريب وتدمير للبشر (مولر / الأمير حامد) ، وهناك من تمسك بما هو ثابت فيه وإن تغير فقط أسلوب اظهاره (بريجيت / شادية) ، فى خضم استغراقى القراءة والتأمل لشخصيات الرواية، تراءى لى، وأنا أشد قدراتى العقلية والانفعالية والخيالية، مشهد الأمير الجميل نرجس وهو يشاهد صورته فى البحيرة، ثم وهو يلقي بنفسه فيها بعد أن عشق تلك الصورة التى لم يكن يعرف إنها نفسه ويتساءلت فى حيرة : هل هو أنانى محب لذاته فعلاً — كما تم تفسيره — أم أن عجز خياله أن يميز بينه وبين ما هو متمثل فى البحيرة هو الذى أدى به إلى هذا المصير البائس!....

اعتقد أننا أنفسنا حين يتلاعب بنا الخيال المرواغ فى بحر الحياة المتلاطم الأمواج ، يلقي كل واحد منا بنفسه فيما يعجز خياله أن يحدده أو يميزه، فيصبح آخراً به نصارع بعضنا البعض ، هل هذا سر شعور الغربة فى الحياة ؟ أم هو عجز الإنسان عن السباحة فى هذا البحر العميق الذى يأبه

ألله البحر (البحر / المحيطات) — كما تحكى الأساطير — أن ينتصر الإنسان ، ولذا ألقى المصريون عروس ليرضى النيل عنهم ، وكان الفرس يقدسون البحر، أما فى الأساطير اليونانية فكان بوزيدون أله البحر هو أخو زفس عدو زيوس رب الأرباب ، والآن من يحكم بحر الحياة على أرض واقعنا العولمى؟ هل هى الأسطورة الإعلامية العالمية ، حيث تتلاعب أضواءها بالعقول والنفوس؟! ولاسيما أن علة الوجود الإنسانى فى ظل النظام العولمى يمكن أن نردها إلى عيبين هما : "اللامبالاة" و "النفاق" .

لعل القارئ أدرك ملامح وأبعاد شخصية بطل الرواية — فيما سبق — وأيضا شخصية "بريجيت" التى أحبها حبا يصفه فى كلمات شعرية ... وأنا أحبك وأنت معى ، فى الليل الحنون فى الحديقة الحانية ، ولا تعودين صغيرة ولا أعود كهلا ، ولكننا مجلوان فى ذلك القمر الفضى فى عمر واحد، دون عمر ، فى قلب الحب الطفل ، وفى الزمن الوحيد الأبدى ... (ص ١٤٨)

وفى موضع آخر يصف هذا الحب الجارف ... كنت ضائعا منى وقد وجدتك ... أريدك أن تبقى ملكى طويلا ... ملكى إلى الأبد ... لو أن الزمن لا يكون ... (ص ٢٠٨)

... أما الأمير حامد فهو شخصية مركبة فهو يتاجر بكل شئ ، ويبيع كل شئ حتى أخاه وأباه، وعندما أراد أن يستخدم بطل الرواية كأداة فى صحيفته المزعومة تم ذلك عن طريق يوسف صاحب الحلم الضائع أن يكون صحفيا بارزاً ، ولكنه اختار بداية خاطئة بأن أصبح سائقا لدى الأمير ، فسلب أدميته واعتبره الأمير مجرد ترس فى ماكينته الشيطانية التى تسلب الروح بئس زهيد ... فى لقائه مع بطل الرواية يقول له : أن المحافظة على كتابنا من أوجب الواجبات ، ولهذا سمحت لنفسى أن ألح على يوسف منذ خروجك من

المستشفى أن تذهب لتريح قليلا فى أى مكان تحب، وسمحت لنفسى أن أرسل معه مساهمة متواضعة لهذا الغرض ... (ص ١٥٥)

أنا شاكر جدا ولكنى لا أقبل ... أقصد لا أحتاج الآن إلى سفر أو نقاهة ...

قال الأمير : أنا لا أجاملك ... الكتاب أثمن ما نملكه لأنهم يشكلون العقل والضمير ... هل نظن أننا سنصل إلى هذه الحالة لو لم تكن الأمة معتلة الضمير؟!

راح يشرح له فكرة الصحيفة القومية التقدمية التى يرغب فى إصدارها ... أعرف اتجاهك الناصرى بالطبع ، يخطئ من يحسب أننا كنا ضد المرحوم ناصر، نحن ... أو على الأقل أنا أعرف إنه الوحيد الذى حاول أن يصنع شيئا لهذه المنطقة ... لم يكن يسمع بنا من قبل ... عرف قبل أن يموت أن السوفييت يخدعونه وأنه لا مصلحة لنا فى أن نناطح أمريكا... وتذكر شيئا فضحك ضحكة صغيرة ، فهم أخيرا روح الشعب عندما زار ضريح السيدة زينب بعد النكسة ... ثم تتهد وهو يتأمل مسبحته كأنه يخاطبها ... انظر إلى ما وصلنا إليه ، انظر إلى حالتنا الآن فى لبنان...

وقد أراد الأمير لصحيفته أن تخاطب العرب فى أوروبا بلغات أجنبية لنقل وجهة نظرنا ، إلا أن بطل الرواية شرح لسموه عدم جدوى ذلك ، وأن صحيفة بلغة عربية أهم وأوقع ... ولما لم يصل الأمير إلى هدفه الحقيقى من الصحيفة وهو محاربة أخاه والنيل منه ... فها هى الأهداف الصغيرة أو الكبيرة لعاشقى السلطة والهيمنة يستخدمها المتحكم فى خيال بحر الحياة

المرواغ من خلال أخطر أداة الأعلام ، غير أن الحب أنقذ بطل الرواية وأعادته إلى وعيه النقي ، فلم يعد يطمع إلا في أن يعيش زمن الحب الذي يستشعر أنه قصير، فقد التقط حدسه اليقظ عبارة قالها الأمير عن عبد الناصر ومناطحة الأمريكان ، وأدرك أن هذا النوع من الشخصية الغنية جدا، الذكية جدا، الطموحة جدا لا تغيب عن عين من يخططون ...، وبدوره أراد اصطناع خاتمين "أنا وأنت يا يوسف" طوع أصبعه لكي يفعل شيئا لا نعرفه... (ص ١٧٣)

واعتقد بطل الرواية أنه بذلك أغلق صفحة الأمير مع نفسه وجنب حياته شره ، لكن الأمير ممن يرون أنهم يتحكمون في أقدار الناس، فلا بد من أن ينزل العقوبة على المارق منهم ... وعلى خط موازى كان من الصعب ألا يتابع البطل أخبار ما يحدث في لبنان من غارات متلاحقة وسط بيروت، وترحيل الفلسطينيين من لبنان تحت إشراف أمريكي ...

وأدهشه ما كتب "برنار الكاتب الحر" في عموده مقالا بعنوان "المعصومون" : أصاب بلدنا الحر مرض غريب هذه الأيام ، أصابه بالخرس، فلم ينطق شيئا عن الجرائم ضد حقوق الإنسان مادامت تأتي من الدولة العبرية ...

وفى خضم حالة القلق والترقب هذه ؛ جاءت مكالمة من صديقه إبراهيم الذي يعيش في لبنان أراد منها أن يصف له ما يحدث حوله من مجازر بشعة في صبرا وشاتيلا ليكتب عنها في أوروبا ... كان صوته ضعيفا ... يائسا ... انقطعت المكالمة ، جرى البطل ليفتح التلفزيون، كان مسلسل "دلاس" ، أدار الراديو لم يسمع شيئا ... وبعد فترة جاءت رسالة من لبنان على التلفزيون لبيوت مدمرة ، أكوام من الجثث ، بحيرات دم متجلط

تحت الرؤوس وحول الأجساد المشوهة ... ودق الجرس، دخلت "بريجيت" تترنج، ارتمت على صدرى وهى تكرر : رأيت ؟ ... قتلوا كل أطفال العالم... كان جسمها كله ينتفض ... وكنت أنا أيضا انتفض ... (ص ٢١٧)

هنا قرر بطل الرواية عمل مظاهرة كبيرة ضد ما يحدث فى لبنان ، واتصل بيوسف حيث يعرف عنه قدرته على الحشد للمظاهرة ، كما كان يفعل ضد "دافيديان" من قبل ، غير أن يوسف قال بحدة : لابد أن أسأل الأمير أولا ... وعندما ذهب إلى المقهى الذى يعمل فيه فوجئ بتغير شكله وإطلاق لحية مهوشة تحيط بوجهه دون تنسيق ... سأله ما علاقة الأمير بالمظاهرة ؟ ... أجاب بنفس نبرة التحدى ... الأمير أفهمنى أشياء كثيرة يا أستاذ كانت غائبة عنى ... أفقت من الضلال أستاذ، الدنيا غابة مليئة بالوحوش ... ولن نصبح أقوياء إلا إذا استخدمنا عقولنا ورجعنا إلى ديننا وإلى أصلنا ...

قال البطل : ولكن يا يوسف ان كان الأمير هو الذى قال لك هذا ، فكيف يعمل سموه مع دافيديان ؟ ... وماذا عن النبيذ ؟ ... أجاب يوسف فى اشفاق ... ألم أقل لسعادتك أن السياسة بحر غويط ؟ ... (ص ٢٢٥)

على ما يبدو أن هذا الزمن كان بداية تأسيس ما يسمى بالأصولية الإسلامية فى المنطقة، وما نشاهده جميعا الآن هو أصداءها ، حيث نرى شاكلة يوسف المسكين ظهرت فى الفضائيات ، واتخذت من الجوامع والمساجد تبة لإطلاق نار الكراهية والتعصب والفرقة ، ولذلك فإن يوسف فى ظنى نموذج دقيق لكيفية التمييز بصناعة الآخر فى الأنا الغائب عن وعيه...

تجمع المشاركون فى المظاهرة فى الميدان الكبير حاملين لافتات : كفى مذابح فى لبنان ، بيجين وشارون قاتلان، لمحت يوسف ... تقدم منى

قائلا بإنفعال لم أر مظاهرات بمثل هذا الحجم في المدينة ... شكرا يا يوسف... أستاذت الأمير؟! تفادى الإجابة ... وأشار إلى رصيف بعيد يقف عليه بعض الذين يلبسون الطاقية الإسرائيلية يرفعون لافتة مكتوب عليها : "عرب يقتلون عربا ويتهمون إسرائيل" ... المدهش إنها تحويرا لعبارة بيجين "أغيار يقتلون أغيارا ويتهمون الإسرائيليين" ... وألقى المسؤولية على الكتائبين.

ثم بدأ تقديم المتحدثين في المظاهرة ، تحدث ممثل المنظمة الفلسطينية وقام يربط الحاضر مع الماضي ، وحكى كيف قامت عصابة الأراجون بنفس المجزرة في دير ياسين وعين الحلوة في عام ١٩٤٨... (ص ٢٣١)

ومن بعده تحدث أستاذ جامعي من البلدة وهو أيضا نائب في البرلمان قائلا : إن البلاد الفقيرة تدفع ثمن رفاهية البلاد الغنية ويثبت ذلك بالأرقام والاحصاءات ... ثم استطرد قائلا : إن حوالي عشرين ألف قتيل وخمسين ألف جريح سقطوا حتى الآن رداً على ضرب سفير إسرائيل بالنار في لندن ... وأنهى كلمته ألم تعط أمريكا العرب إلى إسرائيل لكي يلعبوا بهم هنودا حمرا ؟ ... (ص ٢٣٢)

وتتابعت الخطب والكلمات إلى أن لفت كل انتباه المشاركين "رالف" الصحفي اليهودي الأمريكي العجوز قائلا : إن إسرائيل هي التي دبرت ورتبت هذه المجزرة ، وشاركت فيها من الألف إلى الياء ... وقدم الدليل بوصفه لما حدث ... كيف حوصرت صبرا وشاتيلا على شكل كمامشة ، وكشف عن مصير وفد المسنين الذي خرج من مخيم شاتيلا يرفع أعلام بيضاء ... ثم أطلق المفاجأة قائلا : أدخلت إسرائيل عصابات "القتلة المأجورين" الذين يسميهم البعض الكتائب ... كانوا حوالي ألف وخمسمائة

مجرم ... استمروا يذبحون ويغتصبون ويعذبون ويسحلون ثلاثة أيام متواصلة ... وفى تلك الأثناء كان الإسرائيليون يراقبون من فوق المباني العالية ... (ص ٢٣٤).

صمت رالف قليلا محاولا أن يسيطر على انفعاله ... ثم واصل كنت قد شاهدت هذه القبور الجماعية من قبل فى مخيم عين الحلوة بعد سقوطه "عام ١٩٨٤"، ذلك أيضا ما حدث فى صبرا وشاتيلا ... ، كل الفرق أنهم تركوا فيهما بعض تلك الجثث فى الطريق ... (ص ٢٣٤)

ارتفع صوته قليلا وهو يقول : هل سألتكم أنفسكم لماذا ؟ الجثث مشوهة ... كان هناك فرق متخصصة فى ذلك، تشوه الوجوه ... تسليخ الجلود ... تبتر ذكور الرجال وأنداء النساء ... تقطع الأصابع وتترك عامدة هذه الأعضاء المبتورة إلى جانب الجثث، حتى يجعلوا الإنسان شيئا مقززا ... لماذا ؟ ... النازيون كانوا يحاولون إخفاء جرائمهم ؟ ... لماذا تعلن إسرائيل هذه الجريمة ... ارتفع صوت غاضب من الرصيف الآخر ... أسكت ... أسكت يا خائن ... أكمل رالف : لأنهم تعمدوا أن يثيروا الفرع أن يبلغوا رسالة للعرب ... نحن نقدر دائما على مثل هذا ... ارتفع الصوت ساخرا هذه المرة خائن كذاب (ص ٢٣٥) ، ألنقت رالف إلى مصدر الصوت وقال : أنت لا تخون إن قلت الحقيقة ... بل تخون إن لم تقلها ، يا لها من مفارقة إنه فى الوقت الذى ينطق اليهودى الحقيقة لأنه يؤمن بالعنصر الإنسانى المشترك (*).

(*) وبهذا الرأى يتناقض رالف مع رأى قائد الجيش الإسرائيلى فى الحرب اللبنانية الذى يرى أن : العربى الجيد هو العربى "الميت" ولذا هو يستأصل شعبا غير مختار، وهو نفس مع يحدث من أبناء الوطن الآن، وحتى أبناء الدين الواحد حيث يرى البعض منهم فى البعض "أخرا" كافر لا يستحق إلا الاستئصال بالاستحلال ، طالما أنه يعيش فى هذا الكهف أصل كل الشرور والنفى لكل القيم، وسترى أيها القارئ الكريم أن التحرر من هذا الكهف هو بداية العثور على مكان الوجود الجديد للحب، بعد التطهر من زرع الآخر الذى ينفث الكراهية داخلنا وحولنا.

وتقول "بريجيت" بصوت متعب لبطل الرواية : — بعد خناقة مفتعلة قام بها يوسف مع الأمير العربى (كان يشرب البيرة) على المقهى القريب من المظاهرة — أظن أن ذلك الشخص تعمد أن يفسد المظاهرة ، كان يطلق هتافات ويحدث ضجة ... هل تعرفه ؟ تحدث بطل الرواية إلى نفسه قائلاً : كانت تلك الفكرة قد خطرت لى منذ البدء ... ولكنى أردت أن استبعدها... (ص ٢٣٨)

لعلى أقول لا تستبعد شيئاً يا أستاذ، فمن قام بنفى يوسف عن ذاته وعن جوهره، نفى أيضاً ابنك خالد عنك وجعله يعتذر عن الاشتراك فى مسابقة الشطرنج التى كانت فى نفس الوقت فرصة للقائكما معا قائلاً : بصراحة أنا قرئت فتوى تحرم الشطرنج ... وأنا مقتنع بالكلام ده ... (ص ٨٩)

ولما كان الحب يشرق — كما يقول ميرلوبونتى — من خلال تجربة عاطفية تكاد تكون محسوسة ، حيث نرى "الأفكار" — أى أفكار الآخر وأفكارنا — ليست سوى ملامح لوجهه كما لوجهنا^(١) .

فقد قرأ البطل مندهشاً خطاب إلغاء وظيفته كمراسل صحفى بسبب قرارات تقشف تقوم بها الجريدة قائلاً : وتلك الرسالة التى وصلتني منذ أيام لم تشر إلى ذلك ... غير صحيح ... ظهرت "بريجيت" عند المدخل : بل صحيح جداً ... قال : كيف عرفت ؟ ... قالت : منذ أيام قال لى المدير لم يعد يستطيع استبقائى فى الشركة ، سألته الشرطة عن تصريح عمل ... نصحنى ألا أبحث عن عمل آخر فى المدينة ... أشارت إلى الخطاب المفتوح

(١) موريس ميرلوبونتى : المرنى واللامرنى - ترجمة د. سعاد محمد خضر - مرجعة الأب نيقولا داغر - دار الشروق الثقافية العامة ص ٢٥ .

أمامه قائلة : حاول أن تفكر ... ثم صرخت إنه عالم "ما سياس" وسمو الأمير ... لا فائدة ...

هكذا رسمت بريجيت صورة عالم الديكتاتور الذى أضاع حبها الأول "إلبرت الإفريقى" وعالم سمو الأمير "بائع القيم من أجل السلطة وكرسى الحكم" أضاع حبها لبطل الرواية، فإنه عالم التمويه، والرموز ، ونفى الحب والجمال والكبرياء ... ثم كانت لحظة تجمع الخيوط مع نباح الكلاب، وألم الأزيمة القلبية ، ورغم ذلك تذكر وهو ممدد على المقعد فى الحديقة وجه بيدرو الذى تحول إلى بائع حشيش ؛ ترى من يحول مواطن شريف إلى بائع مخدرات ؛ هل هو الهروب من وعيه لكل هذا الظلم للإنسان ؟ ولذلك أدرك البطل حتى إذا كان ما يشعر به من ألم يمزق قلبه هو اقتراب الموت فهو أعلى صور الحرية ولا سيما عند من دافع عن أفكاره، فإنه بموته يرسى مبدأ لمن يأتى بعده، أن يكون نفسه رغم فداحة الثمن ، ومن هنا كان استقباله لحالة "الغياب" كمن يستقبل النهاية الجميلة لتراجيديا الحياة حيث العودة للأصل ... كان الصوت يأتى من بعيد راح يخفت ... وراح صوت الناي يعلو ... الموجة تحملنى فى بطء وتهدهدى ... والناى تصحبنى بنغمته الشجية إلى السلام وإلى السكينة ... (ص ٢٥٤)

هكذا تلخص لنا نهاية الرواية بدايتها ، لأن البداية التى جمعت أبطال الرواية فى مؤتمر حقوق الإنسان انطوت على النهاية وتبدى لنا هذا من خلال آليات علاقة المجاز التى استخدمها الأستاذ الأديب فى بنية النص الروائى وهى دلالة على ثرائه وعمقه، مما يستوجب القراءة بأكثر من منهج أو تقنية تفسير تجلى لنا أبعادا وتكشف مستويات قد تخفى عن القارئ / الناقد الذى يقتصر على تقنية وحيدة للتفسير ...

وعلى ذلك يمكن أن ندلو برأى فى تفسير "نهاية بطل الرواية" مؤداه أن بطل الرواية — كما أظن — ليس سلبيا أو مترددا ، بل إن الأستاذ الأديب أراد من خلال هذه "الشخصية وهذه النهاية" غير المحددة أن يطور لنا فكرة الغياب / الموت من كونه الغياب الأبدى إلى كونه الحضور الدائم ، ومن ثم يصبح أفقا مفتوحا به يتحول الواقعى إلى اسطورى ، والزمنى إلى أبدى، وهى فكرة لها جذورها فى صعيد مصر، ولا سيما وأن الأستاذ الأديب من الكرنك الذى يقع على الشط الغربى من النيل حيث مقابر الموت، ولكن هل الذين دفنوا فى الكرنك ماتوا وأنتهوا من الوجود وأصبحوا لا وجود، أن المشهد العظيم الذى يقف فيه السياح كل عام مرتين مشدوهين أمام تمثال رمسيس حيث يقع شعاع الشمس على وجهه يوم ميلاده ، ويوم تتويجه على العرش ، صيرورة مستمرة فلا يوجد "موت" (*) ، لأن الحدث ذاته يتجلى أمام العالم كله "ظاهرة كوزمولوجية حية" حيث تحول الحجر بمعجزة فلكية إلى "كينونة ناطقة" بالأحداث رغم موت علماء الفلك الذين حسبوها.

وبذلك ينبهنا الأديب ببراعة إلى "تراء اللحظة" الحاضرة الممتلئة بالإمكانات فهى التى ستحررنا من "هذا الكهف" أو الحبسة Locked التى فيها أما يزهر البعض بلحظة ماضية يتم انقائها على نحو عشوائى، أو قطيعة مع الماضى (الأصل والجوهر). فنصبح أخرا يقاطع آخر من أجل مستقبل تختلف عقولنا على ماهية صورته، لأننا لا نعيش بوعينا لحظة واحدة ... ولكن أحذر يا خالد ... احذر لأن كل الشرور التى عرفتها فى الدنيا خرجت من هذا الكهف المعتم ... تبدأ فكرة وتنتهى شرا ... أنا الأفضل لأنى

(*) وتأكيدا لهذه الفكرة نجد أن أوزوريس - فى الملحمة المعروفة أوزوريس ست - يتحدث من عالم الأموات إلى عالم الأحياء من أجل حق ابنه حورس فى عرش مصر . (انظر حسن سليم : الأدب المصرى القديم - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - الطبعة الأولى ١٩٤٥) .

شعب الله المختار والآخرون أغيار ... لأنى سنى والآخرون شيعة ... لأنى أبيض والآخرون ملونون ... (ص ١٩١) (**).

ولعلى فى النهاية لا أملك إلا القول بأن الأستاذ بهاء طاهر يلعب دورا مهما فى حياتنا الأدبية والفكرية، ففى كل رواية أو قصة قصيرة، يحرض فىنا ضرورة الحوار مع ذاتنا ، لأنه يضع قارئه منذ لحظة الدخول إلى عالمه الأدبى، والتعرف على ما يطرحه من قضايا ، أمام واقعه وأمام مسئوليته، أنه يرجه من الداخل ، ويهزه بعنف ليدرك ويفهم ويتألم مثله ... ثم يتركه مع توابع الرجة فى حالة تساؤل مع نفسه : ما هو الدور الذى يخصنى ؟ وكيف أدركه ؟ وبأى طريقة أفعله ؟

أقول ستدركه ، وستقلعه أيها القارئ الكريم، حين ما تكون نفسك قادرة على إدراك الرؤية متكاملة وذلك بعد رحلة وعى مضنية ، تحاول فيها سد أى ثغرة يمكن أن يتسلل "آخرا" من ذاتك أو من الآخرين ، وهذا لا يتأتى إلا كما كان يفعل بطل الرواية من خلال شكلين من الحوار مع ذاته بصدق مؤلم "بالمونولوج" أو بصدق فاعل وإيجابى مع الآخرين "بالديالوج" ، فبهذين التفاعليين، يشارك القارئ / الناقد فى بناء معنى النص ودلالاته وفى نفس الوقت يحدث ما يمكن أن أصفه بتنمية قدرة القارئ / الناقد على الإبداع الفكرى والثقافى فى واقع مجتمعه ولاسيما الجانب النقدى الذى هو بدوره عملية من التدريب المستمر لقدرات الإنسان الذى به يتجاوز ضيق الأفق ويخرجه عن أى تعصب.

(**) هذا جزء يسير من فصل مهم جدا - فى الرواية - بعنوان "هذا الكهف" والمدّش أننى بعد سنوات من قراءتى الأولى لرواية "الحب فى المنفى" ، قرأت كتاب "The Power of now" لمؤلفه Eckart - London 1999 Tolle ، يدور حول أهمية التنوير الروحى الذى يحرر الوعى من قولية العقل أو تنميته حول فكرة ما تحجب عنه قوة ثراء العيش فى اللحظة الحاضرة والتفاعل مع إمكاناتها ومن ثم أهمية دور وعيك اليقظ بإنسانيتك التى لن تجعل منك آخر لنفسك وجحima للآخرين .

المراجع :

- ١- جيمس بـ . كارس : الموت والوجود — ترجمة بدر الديب —
المشروع القومي للترجمة ١٩٩٨ .
- ٢- موريس ميرلوبونتي : المرئي واللامرئي — ترجمة د. سعاد محمد
خضر — مراجعة الأب نيقولا داغر — دار الشروق الثقافية العامة .
- ٣- وليم راى : المعنى الأدبي من الظاهرانية إلى التفكيكية — ترجمة د.
يونيل يوسف عزيز — دار المأمون للترجمة والنشر — بغداد ١٩٨٧ .
- 4- Eckart Tolle : The Power of now - London - 1999.